

الأبعاد الدلالية لتشاكل الماء في شعر ما قبل الإسلام

The semantic dimensions of water analogies in pre islamic poetry

د / مصطفى منصوري*

جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس
(الجزائر)

mustaphamansouri@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/19

تاريخ الاستلام: 2025/03/09

ملخص:

يرصد البحث دلالات "ماء" في عدد محدد من الشعر الجاهلي، محاولا الابتعاد عن الأشعار الشائعة، لكثرة الدراسات المتتبعة لها، وخصّ المجموعات الشعرية "المفضليات الأصمعيات - ديوان الحماسة (لأبي تمام)..." وبعض دواوين الأفراد. مستبعدا الدلالات المادية للفظ "ماء"، مركزاً على معاني "اللفظة" عندما تخرج من بعدها المعجمي، وتصبح "علامة" على عوالم أخرى ليست من صميمها دائماً.

Abstract :

The research monitors the connotations of “water” in a specific number of pre-Islamic poetry, trying to stay away from common poetry, due to the large number of studies tracking it, and specializes in the poetry collections “Al-Mufadhiliyat Al-Asmaiyat - Diwan Al-Hamsa (by Abu Tammam)...” and some collections of individuals. Excluding the material connotations of the word “water,” he focused on the meanings of the “word” when it emerges from its lexical dimension and becomes a “sign” of other worlds that are not always at its core.

* د / مصطفى منصوري

مقدمة

استحدث النقد الحديث مجموعة من الآليات لمقاربة النص الأدبي. رأى فيها القدرة على كشف بنيته، وتحديد طرائق تعامله مع اللغة، حيث ارتبط ذلك السعي برغبة ملحة في نزع قساوة الأحكام الذاتية التي كثيرا ما حجبت الرؤية الواضحة، والتفويض السديد وعمقت الفجوة بين النص والقارئ.

من أجل ذلك انصرف النقد ((من استخدام الملاحظة والاستدلال معا، على وجه حسن، إلى الكشف عن قوانين الظواهر)) (جميل صليبي المعجم الفلسفي، ص 579/2). من خلال تتبع الألفاظ والتراكيب النحوية في مداراتها المختلفة. فأصبح التمييز بين مبدع وآخر وجنس أدبي وآخر متوقفاً إلى حد بعيد على طبيعة المعجم الفني الموظف من كل طرف. و لعل إلى ذلك يطمح التحليل السيميائي حين يقف على دلالات الألفاظ منفردة وفي علاقاتها المتعددة مع السابق عليها واللاحق (.. P. lerat semantique descriptive 1983 p.07 ليخلص إلى أحكام قريبة من الموضوعية، متصلة بالنص ذاته

المعجم الفني وسياقات التحديد:

و يبدو أن بعض وجوه "المعجم الفني" كان الناقد العربي القديم على علم بها، إذ أشارت بعض الوقفات إلى قدرة جامعي الشعر على التمييز بين صحة انتساب قصيدة لشاعر بعينه من خلال طبيعة المعجم اللغوي، يردون رواية أو يستحسنونها بحسب موافقتها لذلك المعجم أو ابتعادها عنه. كما أن الرواة المتحليين كانوا على دراية كبيرة بمذاهب الشعراء، وطرائق تعاملهم مع اللغة. يستطيعون ييسر إلصاق قصيدة بشاعر على سبيل الانتحال. لكن ذلك لا ينفي شيوع آلية "المعجم الفني" بالنقد الألسني أساساً، في بحثه الدائم عن البنية اللغوية للنص الأدبي.

إذا كان راصد "المعجم الفني" لا يلاقي عناءً في تتبع دلالات الألفاظ في نص واحد، فإنه يواجه صعوبات جمة إذا تعلّق الأمر بنصوص كثيرة، تستدعي قراءة متن شعري متفرق بين مصادر مختلفة. وبخاصة إذا كان حاله شبيها بالشعر الجاهلي الذي تحيط به عوائق لا تحصى، فدراسة معجمه الفني لا ((تكون منتجة علمياً ما لم تعتمد على دراسات مستقلة عن المعجم الجاهلي إحصاء وجدولة ومقارنة. وعلى دراسة مستقلة عن تطور الكلمة الشعرية العربية وتاريخها، والحال أن هذه الدراسات فقيرة جداً، والموجود النادر منها جزئي ومشتت)) (أحمد بوزفور: تأبط شعراً. نشر - ص: 63).

. ومن ثم فرصد دلالات لفظة "ماء" مثلاً في الشعر الجاهلي، لا يتأتى أكله، ما لم تتكاثف جهود باحثين، ينبري كل بحث لتتبع "اللفظة" عند شاعر بعينه.

– لفظة "ماء" في الشعر الجاهلي:

لا يخلو ديوان شعري جاهلي من ورود كلمة "ماء" أو ما يعادلها، ولا غرابة في ذلك فهو الذي شكّل حياة العربي في شبه جزيرة قاحلة. يدوم انحباس المطر عنها سنين عدداً. وعندما يقبل يحيل الصحراء إلى سيول جارفة. تعود إلى وضعها الجاف ثانية كلما انقضى زمن تلك السيول. فتنتقل القبائل مقتفية مرابعه، وقد تغزو من أجله، إن لم تنفع التعاويذ لاستحضاره. وبذلك شعر كل فرد –كائن– بمسؤوليته في البحث عن الماء. إذ استمرار الحياة متوقف عليه. يسهر الشاعر مترقباً قدومه إن طال انتظاره حوّله إلى نصّه الشعري حاملاً بقدمه في الواقع. وبذلك صارت "القصيدة" مبشرة بعهد جديد، تطرب الحيوانات في رياضه، ويخرج الصبية يهللون بزمنه فأصبح للمطر أكثر من صفة فهو "شؤبوب ووابل، وطلّ، وغيث، دجن" كل حسب درجته وفعله، والسحاب أنواع "رباب، عارض، يمان، مزن". تبعاً لما يحمل من مطر قد يقل أو يكثر. وقد تتحول دلالات اللفظة وما سار على فلكها إلى "حقول جديدة" رأى فيها الشاعر الجاهلي تشاكلاً دلاليّاً مع الماء. يمكن من خلال آلية التشاكل الوقوف على بعض وجوهه، وقد تظهر أيضاً كيف أن نصوصاً كثيرة، يمكن أن تلتقي في مستويات سيميائية متجانسة. Voir Alain Rey 1976.p.244

ولن يكون هنا الاهتمام موجهاً للتشاكل المرفولوجي أو غيره، بل الدلالي، الذي قد يظهر انسجماً بين الماء، وحقول تبدو بعيدة عنه، يكشف المخطط التالي بعض أبعاد

تلك هي الدلالات التي ترتبط بها لفظة "ماء" في الشعر الجاهلي، عندما يتحول من معجم الأصلي، ويصبح ماء شعرياً يسمو به الشاعر، ليحيط بمخيلته، ويخفّ وجهته واهتمامه. وغير بعيد عما هو شائع في الذاكرة الشعبية، فالمياه ولا شيء دونها، فقد ((يعطي له أحياناً بعد جنسي وأحياناً ينظر إليه كملقح لميلاد عالم جديد محضر وخصب وحي)). رشيد يحياوي: ماء الشعر الجاهلي – 2000 – ص158.

أ – الماء... هوية قبيلة:

لم يكن الماء في شبه جزيرة العربي، حظاً مشتركاً بين جميع الناس، فقلّته استدعت اقتسامه بطرق غير عادلة، تستحوذ قبيلة قوية على القسط الأكبر منه، وتشقى القبائل بحثاً عنه، وإن عثرت عليه ولم تكن ذات بأس فقدته وعادت لظلماتها. ومن ثم صارت القبيلة مجبرة على إذاعة أمر امتلاكها "الماء" يدخل في دائرة سلطتها، لتبعد الأطماع وتجنب الاحتكام، بعد أن أصبح اسمها مرتبطاً به على مرّ الأجيال:

فإنّ الماء ماء أبي وجدّي و بُرّي ذو حَفَرْتُ وذو طَوَيْتُ (التبريزي: شرح ديوان الحماسة ص – 1/ 231.

فالماء له ولا أحد ينازعه فيه، هو وحده المتصرف، المانع والمأنح، إذ الشرعية التاريخية تنصفه.

و في السياق نفسه تتوالى أسماء القبائل مرتبطة " بمياه " تمتلك أحقية الانتفاع به، بل أن لكل قبيلة ماءها الخاص، يذيعه شاعرا لئلا يمس بسوء:

وتشرب أسارَ الحياضِ تشوفُها و إن وردت ماء المَريّة آجما (الأصمعيّات ص 59
ماء المريّة: ماء لبني عمر بن كلاب.

وأقربُ مؤرِدٍ مِنْ حَيْثُ رَاحا أثالُ أو عُمازةُ أو نُطاعُ (المفضليات ص.39)
أثال - عمازة - نطاع: مياه لبني تميم.

بَكَرْنَ بُكُوراً وَاسْتَرَحْنَ بِسُخْرٍ فَهَنَّ وَوَادِي الرِّسِّ كَالْبَيْدِ فِي الفَمِ (ديوان زهير 1964 ص 11
وادی الرّس: ماء لبني أسد.

و يتوالى النعت ذاته مع معظم القبائل وكأن "الماء" يدخل ضمن أسس انتمائها، ويحدد جغرافيتها ويتيح ذلك إمكانية ردّ المتربصين.

و قد ينفرد شخص واحد بوصف "ماء" ليصبح مانحاً له، التقرب إليه كفيل بمنع الظمّاء. والعرب تسمي أولادها أحيانا للتبرّك أو التفأل، أو دفعاً لخطر، فما يمنعها أن تنعت أشخاصاً بالماء و((منح الدلالات مفهوماً خاصاً، يسهّل ربط أسماء الأعلام بدلالات محددة)) (p.Lerat .1983. p :71)

فيكون المسمّى مجسّداً لرغبة دائمة لقدم المطر، وإصراراً على أن يكون حاضراً لا يغيب من خلال "الشخص = الماء" الذي قرن اسمه به وإلى ذلك أشار الحارث بن حلزة:

فملكنّا بِذلِكَ النَّاسَ حَتَّى ملك المنذر بن ماء السّماء (الحارث بن حلزة 1996 ص 29)

و يديهي أن يشير "ماء السماء" إلى المطر الذي تتوقف عليه حياة العربي في جزيرته وقد يصبح شخصا آخر "غيثا".

وَ نَحْنُ غَلَبْنَا بِالْجَبَالِ وَعِزَّهَا وَ نَحْنُ وَرَثْنَا غَيْثاً وَبُدينا (التبريزي ص.80)

و "غيثا" رجل من طيء، يكشف اسمه المطر المرغوب، الباعث للحياة لا القاتل لها.

ب . الماء... ريق امرأة:

تلتقي المرأة مع الماء في كثير من المميّزات، فكلاهما مانح للحياة، بالماء تحي وبالمراة تستمر، فالخصوبة تجد كل دلالتهما عند المرأة. ولأمر ما تعلق العربي بجسدها فعشقها بدينة تكون قادرة على الإنجاب والخصوبة. فرأى "ريقها" ماء يذهب الجذب يصبح حضورها في مكان مجدوب خصباً وحياة.

أَحِبُّ الْأَرْضَ تَسْكُنُهَا وَ إِنْ كَانَتْ تَوَارَتْهَا الْجُدُوبُ (التبريزي ص 90)

فلا غرابة أن يكون ريق المرأة، سحابة تتحول إلى مطر ثم إلى سيل يأتي على النبات من كل جانب:

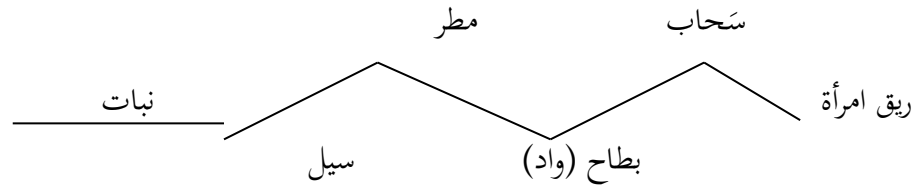
وَإِذَا تَنَازَعَكَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهَا حَسَنًا تَبَسُّمُهَا لَذِيذَ الْمَكْرَعِ

بَغْرِضٍ سَارِيَةٍ أَدْرَتْهُ الصَّبَا مِنْ مَاءٍ أَسْجَرَ طَيِّبِ الْمُسْتَنْقَعِ

ظَلَمَ الْبَطَاحُ لَهُ انْهَالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النَّطَافُ لَهُ نَعِيدَ الْمَقْلَعِ

لَعَبَ السُّيُولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَأْوُهُ غَلَاً تَقْطَعُ فِي أَصُولِ الْخِرُوعِ (المفضليات، ص 245/246)

واضح أنّ الرِّيقَ أحدث تحولاً جذرياً في المقطع على المستوى الدلالي، حين جعله مؤلداً للخصب متتبعاً أطوار نشأته مذ كان ريقاً فسحاباً ثم مطراً فسيلاً ثم تعانق مع النبات. وهو تحوّل أيضاً على مستوى الفضاء الشعري، بتمفصلات أفقية ومودية تسير وفق الشكل التالي:



و يصح تبعاً لذلك اعتبار المرأة معادلاً للماء، إذا شحت السماء، تحولت الوجوه شطرها، رجاء بعث ريق يعيد الحياة إلى طبيعتها الأولى.

و قد تفهم الصورة أكثر، في الوقوف على الدلالة الجنسية للمطر، فهو محفز على الفعل والمرادة. كلما ظهرت بواده، سارع الشاعر إلى احتضانها، نشوةً بالمنظر، واعترافاً بجميل امرأة تقدم الدلائل على تمييزها في كل مرة:

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَا وَ الْخِدَرُ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ

فَدَفَعْتُهَا فَتَدَافَعَتْ مَشَى الْقَطَا إِلَى الْغَدِيرِ (التبريزي ص.14)

وغير خفي في هذا المقام، كيف أن امرأ القيس، تتمتع بإقبال وإدبار "عنيزة" وصديقاتها، في غدير "دائرة جليل".

و بذلك تنكشف الرموز الكثيرة "للماء" حملت "المرأة" أبعاده في أحلى صورها بامتياز.

ج - الماء... علامة كرم...

ربط العربي بين الكرم والماء في كثير من المواضع. فالحاجة ملحة لهم، الماء إذا أجذب المكان، و"الكرم" للتقليل من وطأة الحاجة الناتجة في كل الأحوال عن شح السماء. وكأن الكرم يعوّض الماء إذا غاب. فالبحت عن الكرم لا يكون بالضرورة إلا إذا كانت "السنة شهباء" تترقب فيه النفوس "ندى" لا يأتي من السماء دائماً.

- من يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ وَالنَّدَى خَلْقًا (ثعلب، 1964 ص. 53) و غير مستبعد أن يصير ذاك "الندى" ماءً عذباً مستساغاً شربه كأنه العسل.

إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرَّجَالِ حَزَازَةً فَأَنْتَ الْحَلَالُ الْخُلُوُّ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ التبريزي، 194

و قد تظهر مثالية "الكرم" أكثر حين المزاحمة، "فحاتم الطائي" يمنع مطيته من الشرب قبل مرافقيه.

و مَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زِمَامِهَا لِشَرَبِ مَاءِ الْخَوْضِ قَبْلَ الرِّكَائِبِ (التبريزي ص. 29/2) إذ الكرم من يتعفف، كلما تدافع الآخرون وتسابقوا، على "ماء" هو مانحه.

ح - الماء... قوة وشدة بأس...

يتجلى التميز والتفرد في صفة ماء، عندما تنعدم عند الآخرين، أمّا حين تصبح حظاً مشتركاً فلكل نصيبه. والماء في شبه الجزيرة العربية مواضعه محدودة، هي من امتلاك قبائل محدّدة. تنتجع إليها في الجذب. والذي لا يملكه فلا يخرج لديه سوى التحالف أو الغزو واستباحة خصب الناعمين به.

لذلك اتخذ "الماء" مادة للفخر، وسلاحاً في يد القوي والمالك له. يعتزّ به، ويظهر بأسه في مقاومة من يحاول الدنو منه. فهو قادر على الإيقاع بهم كوقع السحاب تماماً:

و حَسِبْتَ وَقَعَ سُيُوفِنَا بِرُؤُوسِهِمْ وَقَعَ السَّحَابَةُ بِالطَّرَافِ الْمَشْرِحِ (الحارث بن حنظلة ص. 43)

فإذا كانت "الخيمة" تمن من ضربات المطر، فإن السيوف تفعل الفعل نفسه بالأعداء. وقد يصبح أهل الخصب سيلاً حين يتحول المجدبون إلى واد صغير.

فَجَاؤُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجَنَّاكَ سَبِيلَ الْعَرَضِ ضَاقَ بِهِ الطَّرِيقُ (الأصمعيات ص. 209)

لن يبقى بعد ذلك إلا أنسنة الصحراء والاستئناس بالجذب، بعد أن انفردت فئة بالخصب، واتخذته مجالاً لإعلان القوة وشدة بأس وقهر الطامعين. إذ لا قوة لمن لم تكن أرضه خصبة:

لا أَرْضَ أَكْثَرَ مِنْكَ بَيْضَ نَعَامَةٍ وَمَذَابُنَا تَنْدَى وَرَوْضًا أَخْضَرَ (التبريزي ص. 232)

فأرضه أكثر الأرضين خصباً بدليل كثرة بيض النعام التي لا تأنس إلا للأرض الخصبة والكثيرة الماء.

و لن يجد الباقون حلاً لأزمته وهمومهم مع الجذب إلا بتحدّيه كفعل الشنفري.

ولا ظمًا يؤخّرني وحرّ ولا خمض يقصّر من طلاب (الشنفري، 1996، ص.30

و من ثم يصبح الماء خطاباً ((بالأبيات، إنّه فخر البطل واعتداده، واعتداد الجماعة وسيدها عبر صوته. ووراء الشعر أيضاً تمحّي الصحراء)) أندري ميكيل، 1998 ص.69)، يتجاوز الشنفرة حاجته الآنية وصحراء ليبرز تميزه.

خ - الماء... خوف ورهبة...

آمن العربي في جاهليته، بقوى خفية، توجّه حياته، وتنظم شؤونه، تنفعه ولكنّها تضّر أحياناً، فامتزجت لديه الرغبة والرّهبة معاً. فهو يتقرب إليها لدفع أذاها. ويرجو أن تشملها عطاياها. ولعلّ ذاك ما يفسر تصنيفه للجن، منها الطيّب ومنها الخبيث. وتراءت له أمكنتها في الوديان والآبار والكهوف. لذا تجنب ورودها منفرداً ودون أن يقدم تعاويذ خاصة لإرضائها اتقاء شرّها. وقد تكون القصيدّة ذاتها قرباناً يستجدي به تلك القوى الخفية. بعد أن يكون قد أظهر ظمأه وجذب مكان حبيبته الطّاعنة. ثم يأتي الماء - في وسط القصيدّة عادة- ليسوّغ رحلته، لكنّه يلفيه مخيفاً مهيباً تحرسه سباع وذئاب، ويحفّه ريش الحمام بشكل يثير الرّهبة والفرع. لا تنفع معهما إلا رباطة الجأش وإصرار على المواجهة:

وَ لَقَدْ وَرَدَتِ الْمَاءُ أَكْثَرَ وَرْدِهِ وَ خَطُّ السَّبَاعِ كَأَنَّهَا النَّشَابُ (السكري ديوان الهذليين، ص2/285)

فالسّبع مكلف من تلك القوى الخفية لحراسة المكان، ومنع الظّامئين الاقتراب منه، إلا إذا أصرّوا.

وَمَاءٍ آجِنِ الْجِمَاتِ قَفْرٍ تَعَقَّمُ فِي جَوَانِبِهِ السَّبَاعُ

وَرَدَتْ وَقَدْ تَهَوَّرَتْ الثَّرِيًّا وَتَحْتَ وَلِيِّيْ وَهْمٌ وَسَاغُ (المفضليات، ص187)

فوروده لم يتم، إلا بتحدّي السّباع، والواقع أن لا أحد يقوى على إيراده وقت المغيب الذي فيه تتجلى "القوى الخفية" وتترصد بالتائهيّن. ويبدو أن "لولج الماء" عند تهيم النّهار للانصراف لا زال المعتقد الشعبي العربي يحذر منه. إذ هو زمن اغتسال الأرواح وقضاء حاجاتها بعيداً عن أنظار النّاس، فهي خفية لا تحبذ أن ينظر إليها مجسّدة.

و التركيب الذي جاء فيه "ماء" يوحي بالخوف ذاته، فهو ماء متغيّر، (آجن) في مكان قفر.

د - الماء... دمع منهمر...

قرن الشعر الجاهلي الدّمع بالماء، في كثير من صوره. فغزارة الدّمع قد تتحول إلى مطرٍ وإلى نهر جار. وقد

يكون ذاك الاقتران متصلاً بتشاكل تحدد "السيولة" طبيعته، بل إن الدمع ذاته ماء.

يأتي الدمع مرادفاً للماء عادة في الطلل، وبعد وصف قفر المكان وقحطه بنأي الأحيّة عنه. ولا يجد الشاعر مناصاً، من دعوة أصدقائه لتأمل المكان، ثم يذرف دموعه آملاً في تحولها إلى ماء مخصب، يعيد الأشياء إلى طبيعتها الأولى. فيعود الزمن إلى سالف عهده، ويعود الأحيّة بعد أن صار مربعهم خصباً أخضر.

-الدمع - قرينة ماء:

ألم يأتها أن الدموع نطافة لعين يُؤاني في المنام حبيها

تحدّر ماء الغرب عن جرشية على جربة تغلّو الدبار غروبها (المفضليات ص.330)

فدموعه تحولت إلى دلو تحمله ناقة يمانية فيتقاطر حين السير. واستحضر "النّاقة واليماني" في البيتين، يحمل دلالات كثيفة متصلة مع "الماء" "فبشر بن أبي خازم" ذو الأصول الحميرية، يعي ما لليمن من خصب وماء. وفي مقابل ذلك "النّاقة" تومئ إلى مواجهة العطش، فقد تستغني عن الماء لأيام طوال وإن كانت تحمله. كان ذاك الربط بعد أن ذكر تغيّر المكان وأصابته عوادي الزمن:

- ماء العينين:

يشير الشاعر الجاهلي للدموع "بماء" ليمنح للبكاء كلّ دلالات الغزارة وشدة الوجد من فراق أهل الطلل. وقد يتيح ذلك إمكانية تحويل الدلالة إلى "ماء" بصورته الأصلية. فيصبح قادراً على تخصيص الجذب إذ هو الذي أبعد الأحيّة:

أمن رسم دار ماء عينك يسفح غداً من مقام أهله وتروّحوا (القرشي، ص.257)

تزجي بها خنس الطباء سخاها جاذزها بالجو ورد وأصبح

و يبدو أن "ماء العينين" استطاع فعلاً أن يزيل قحط الطلل بدليل أنه صار مألّفاً للظباء والجاذز.

ذ - ماء... الطلل...

كان رحيل الأحيّة، بسبب جذب المكان وانحباس المطر عنه، فقد اعتادوا الانتجاع مرايع الخصب كلّما أجذبوا. فيصبح الشاعر مطالباً ببعث الحياة، وبتخصيب المكان، حالماً بعودة محتملة عندما يعجز اللّحاق بهم. بعد أن يقوم باستحضر "الماء" الذي دفعته ندرته إلى الرحيل. وكأنهم يدعوه إلى انتجاع مكانهم الأصلي، وقد صار على يده خصباً صالحاً للحياة. يتم ورود "ماء" في الطلليات عادة بالأشكال التالية:

-الماء... طامس للطلل مغير له...

ليس القدم هو الذي يغيّر المكان وبطمسه بل الأمطار أيضا قد تجعله كذلك:

قف بالديار لم يعفها القدم بلى وغيّرها الأرواح والديم (زهير بن أبي سلمي، ص.145)

و قد يجتمع القدم (البلى) والأمطار كفعلين مسهمين في التغيير:

وقفت برنع الديار قد غيّر البلى معارفها والساريات الهواطل (النابغة، 1980، ص.86)

- الماء... كشف للطلل:

يمكن "للماء" أن يصبح محفزاً أكثر لذاكرة الشاعر في كشف الديار بعد أن طمست بفعل الزمن

و جلا السيول عن الطلّول كأنّها زبر تجدّ مُتُونُهَا (لبيد بن أبي ربيعة، ص.163)

و في مقام آخر يصّر الشاعر الجاهلي على إبقاء "سمات الماء" حاضرة في الطلل "النّوي" وكأنّه هو الوحيد القادر على تجاوز فعل البلى والزّمن.

فلم يبق منها غير نوي مهّد و غير أوار كالركي دحان (المفضليات، ص.258)

فالتّوى إشارة إلى حضور "الماء" الفعلي، في عهد الأحبة في الديار وفي غيابهم أيضاً. أيكون ذلك إعلاناً عن استمرار الحياة، وإبقاء المربع مشدودة إليها بفتيل.

و مهما يكن فالطلل يتعدّى كونه بكاء على من ظعن، بل محاولة يائسة لاسترجاع الزمن، وزفرة عميقة ضدّ طبيعة غير رحيمة، لا تُحبذ الوصال. أمسكت "ماءها" فانتجع الأهل... ثم يأتي الشاعر ليمنحها ماء "شعره" ويستمطر السّماء بدموعه، فيتجاوز جذب الطلّ، ويجعله يعج بالحياة وبالماء. فلا يكون حبيس اللّحظة، ولا تكون صوره مطابقة للواقع. وأيّ وظيفة تنتظر من الشاعر الجاهلي إن لم يكن باستطاعته رسم عوالم خصبية في زمن الجذب.

ر- الماء... تعانق مع حقول أخرى:

إذا كان أمر ورود لفظة "ماء" في الشعر الجاهلي بالأشكال التي أومأ البحث إلى بعضها، فإنه يتعانق مع حقول أخرى، عند شعراء بأعينهم، دون أن يشكل ذلك ظاهرة عامة.

- الماء... ضابط للزّمن:

و لَيْلَةٌ هَطلَ بِالماءِ آخِرُهَا حرى قديت تسريها (السكري، ص.285/2)

و تحديد الزّمن أو الإشارة إلى حدث، يربطه بليلة ممطرة، وذاك دليل على قلة أزمنة المطر. والتّادر يحدد به عكس

الشائع المألوف.

– الماء... دعاء السّقى:

يتردد في الشعر الجاهلي الدعاء بالسّقى للقبور، وقد ارتبط ذلك بأسطورة كان يزعم فيها ((أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الهامة وصاح: اسقوني اسقوني، حتى يطالب بثأره قال ذو الأصبغ العدواني:

يَا عَمْرُ إِلَّا تَدْعُ شَمْتِي وَمَنْصَتِي أَضْرِبُكَ حَتَّى تَقُولَ الْهَامَةُ اسْقُونِي)). (القلقشندي ص. 405/1)

و الواقع أن السّقى لا تكون للهامة بل لاعتقادهم أن الموتى يمارسون حياتهم العادية في القبور. فجاء الدعاء بالسّقى لينعم الميت بماء لا يقوى البحث عنه وحده:

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر وابل (النابغة الذبياني ص. 90)

وَلَا زَالَ رِيحَانٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرٌ عَلَى مُنْتَهَاهُ دِيمَةٌ هَاطِلٌ

فهو يحدد بدقة مكان القبر ويدعو المطر للهطول فيه ليحوله مسكاً وعنبراً. ويكون ذلك عادة في مواقف الرثاء.

سَقَى إِلَهِهَ ضَرْيحاً جَنَّ أَعْظَمَهُ وَ رُوحَهُ بِغَزِيرِ الْمَرْزِ هَاطَلِ (الخنساء 1963 ص 109)

و كثيراً ما تتردد لفظة "السّقى" في الطلل، فهو في وضعه الجديد لا يبتعد كثيراً عن حال الميت.

سَقَى دَارَ هَنْدٍ، حَيْثُ شَطَّتْ بِهَا النَّوَى أَحَمَّ الدَّرَا، ذَانِي الرَّبَابِ تَخِيئُ (امرؤ القيس، 214)

و في الحالتين فبعث الحياة هو المقصود.

و لا تستبعد أن تكون السّقى أيضاً مرتبطة باعتقاد الجاهلين بقدرة الموتى على استنزال المطر، إذ كان بعضهم يعقر على القبور (ابن عبد لربه، العقد الفريد، ص. 174/5)

– الماء... خمر وهو... :

يأتي "الماء" مقترناً بالخمرة، إذ به تصبح متفردة قادرة على إحداث لذة أكثر، ويجذون أن يكون مرجها بماء صاف بارد:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ بِسَلَاةٍ مَرَجَتْ بِمَاءٍ غَوَادِي (المفضليات، ص. 218)

و لا يمانعون إذا لم يجدوا ماء القطر أن يكون ذاك الماء من قرية

شَنَّ عَلَيَّهَا بِمَاءٍ بَارِدٍ شَنَّ مَنُوطٍ بِأَقْرَابٍ هَزِيمٍ (المفضليات ص. 248)

خاتمة

تلك هي معظم المواضع التي يتمّ فيها ذكر "الماء" بصيغته الأصلية أو بصيغ معادلة له قد تكون -مطرًا- خصبًا-نُهرًا ويبدو أن الماء شدّ العربي إليه، وربط وجوده به، كل شيء منبتق منه وراجع إليه أيضًا. استمد منه صوره وتعابير، آلامه وأحلامه، واقعه وآفاقه. كل شيء قائم به ولا شيء دونه، عرف مرابعه فتنبعها، تجاوز خوفه واقتنح وديانه، ردّ الأعداد عنه وغزا من أجله، مدح به وافتنخر على من لا يملكونه. فصار امرأة وحيوانا وإنسانا؛ فحقق بذلك أسْمَى المعاني {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}. (الأنبياء الآية 30)

القرآن الكريم رواية ورش عن نافع

المصادر والمراجع:

- الدواوين الشعرية والمجموعات الشعرية: *

المجموعات الشعرية

الأصمعي، الأصمعيّات، تح، عبد السلام هارون. محمد شاكر - دار المعارف، مصر.
المفضل الضبي، المفضليات، تج عبد السلام هارون - محمود شاكر - ط6 - (دت) - لبنان -
التبريزي، شرح ديوان الحماسة، دار القلم لبنان
ابن الحسين السّكري: شرح ديوان الهذليين - تح: عبد الستار أحمد فراج - راجعه محمد شاكر - مكتبة دار العروبة -
(د.ط.ت) القاهرة -
القرشي جمهرة أشعار العرب، جمهرة أشعار العرب: شرحه و ضبطه و قدّم له علي فاعور - دار الكتب العلمية -لبنان
ط2 - 1992

2- الدواوين الشعرية

امرؤ القيس، الديوان، - تح: حنا الفاخوري وفاء الباني - دار الجيل-لبنان - (د ط ت)
النابعة الديباني: ديوانه تج كرم السيتاني - دار بيروت للطباعة و النشر (دط) -لبنان - 1980
زهير بن أبي سلمى، الديوان، دار صادر، لبنان
الحارث بن حلزة، الديوان، تح: إميل بديع يعقوب - دار الكتاب العربي -لبنان - ط2 - 1996
لبيد بن أبي ربيعة، الديوان، دار صادر، لبنان
الشنفري: ديوانه تح: دامليل يعقوب - دار الكتاب العربي ط2 1996
ثعلب: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - الدار القومية للطباعة و النشر - القاهرة - (دط) - 1964
الخنساء: الديوان - تح: أكرم البستاني دار صادر - لبنان - 1963 جميل صليبا: المعجم الفلسفي - دار الكتاب
اللبناني - لبنان
مراجع عربية

القلقشندي: صبح الأعشى. نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية - وزارة الثقافة و الارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة و النشر القاهرة-مصر - (دت)

أحمد بوزفور: تأبط شعراً. نشر "الفنك" - الدار البيضاء - المغرب - (دت)

المجلات:

¹ - اندريه مايكل: الصحراء و راموزها تر: عبد الكريم حسن/سميرة بن عمو - البحرين الثقافية - ع: 15 - يناير: 1998.

- رشيد يحياوي: ماء الشعر الجاهلي - جذور التراث - ع3 مارس 2000 النادي الأدبي الثقافي بجدة.

مراجع أعممية

-:Alain Rey: Theorie du signe et du sens . Edition klincksier . Paris .1976
P. lerat semantique descriptive Hachette 1983)